رسم فى الظلام

ترجمة : لهدى السيد

منذ سنوات ست ، وفى صباح أحد أيام شهر أكتوبر الذى تكثر فى سمائه السحب الرمادية اللون ، كنت أستلقى على سريرى أطالع كتابا ، وفجأة رأيت بريقا يومض داخل رأسى واختفى الكتاب من أمامى ثم اختفت بعد ذلك الغرفة تماما . وسرعان ما وجدت نفسى سجينا .. حبيس قفص من الظلام ... وفى الحقيقة كان على أن أعد القوة لمواجهة تلك اللحظة الحرجة، ذلك أننى فيما مضى كنت قد أصبت بمرض « الجلوكوما » الذى سلبنى نور احدى عينى ، وحذرنى الأطباء حينذاك من أن العين الثانية قد سرى اليها المرض وأصيبت بالفعل، ومع ذلك فقد داخلنى شعور سخيف يقضى بأن أتجاهل هذا الأمر حتى أفر من ذلك المجهول المزعج الذى ظل يطاردنى فى كل لحظة .

وبينما أنا فى طريقى الى المستشفى أخذت أحدث نفسى وأمنيها بأن هذا الظلام لاشك أمر وقتى يزول بعد حين. تعلقت بهذا الأمل وتشبثت به حتى أطاح به الأطباء ... شعرت آنذاك وكأن روحى تسقط فى هوة سحيقة من اليأس والألم ذلك أننى عشت فيما مضى أعتز بكرامتى واستقلالى فى الحياة ، أما الآن فقد ذهب كل شىء ... نعم لقد فقدت وظيفتى كمراجع حسابات احدى الفنادق ، وقبعت فى منزل عار من الأثاث وحيدا تائها فى دياجير الظلام .

وقفت عجلة الزمن بالنسبة لى مدة أسابيع طوال بعد ذلك الحادث الأليم ، لم أكن أشعر خلالها الا بايد تلمسنى وأصوات تتحدث ، ويخيل الى أنها أصوات وهمية آتية من عالم بعيد ، وفى بعض الأحيان كنت أجلس الساعات الطويلة صامتا لا أبدى حراكا ، ثابتا كالصخر الأصم .

ولما حان الوقت لأغادر المستشفى احسست برعدة من الذعر تسرى فى كيانى وتهز أعماقى ، ذلك أننى لم أدخر شيئا من المال فيما مضى استطيع به أن أقوم حياتى ـ ولكنى علمت فيما بعد أن هيئة مساعدة العجزة سوف تقرر لى معاشا عن العجز الكلى، وأن ادارة الضمان الاجتماعى ستساهم هى الاخرى بنصيب كاعانة لى ـ لم يكن لدى مسكن آوى اليه ، اذ أننى كنت أقطن من قبل فى مدينة صغيرة بقرب « فرجينيا » لم يكن لى فيها من أصدقاء أو معارف

اللهم الا قليلا . ولذلك قررت أن أعود الى مدينة « سافانا » وهى مدينة صغيرة عشت فيها وقتا ما حيث كان لى بعض الاصدقاء .

وفى مدينة سافانا هذه حدثت معجزة ..

فقد فكرت جديا أن أحاول الكتابة ، ولذلك أعلنت فى احدى الجرائد أطلب سكرتيرا يعمل بعض الوقت وبينت فى الاعلان اننى ضرير ولا أستطيع أن أدفع الا أجرا قليلا ، وعلى الرغم من ذلك جاءنى أكثر من أربعين شخصا يرغبون فى العمل معى . ولكننى اخترت من بينهم آنسة تدعى (دوثى) جذبنى صوتها الجميل . كانت تشفق على بلا شك بادىء الامر ، ولكن ما لبثت أن تحولت هذه الشفقة الى حب كبير كان الزواج ثمرته ـ ومن ذلك الوقت لم أعد أعيش وحيدا ولكن مع ذلك كنت أشعر أحيانا بأسى كبير ، كيف لا ! وقد دفعت بـ (دوثى) ـ كما كنت أدعوها ـ الى أعماق جحيمى الذى كنت أعيش فيه .

لم تنجح محاولتى للكتابة كما توهمت أول الامر وذلك بسبب الفراغ المظلم الذى كان قابعا وراء عينى والذى وقف حجر عثرة أمام تفكيرى ، وكثيرا ما كنت أثور وأصرخ فى وجه (دوثى) بشدة وعنف اذا ماحاولت أن تهدىء من روعى .

وذات يوم ، وعلى أثر احدى تلك الانفعالات المتكررة ، سمعتها تقول بصوتها الهادىء الصبور :

ـ سأخرج لبرهة قصيرة . اليك هذا القلم وتلك الورقة فلربما أحسست ميلا الى كتابة بعض الملحوظات :

ولما انصرفت أخذت أفكر فيما عساى أن أفعل لأرضى (دوثى) وأصلح أثر انفعالى فى نفسها .. بدأت أخط علامة على الورقة التى أمامى ثم مررت بأصابعى عليها .. لاحظت أن أطراف أصابعى أصبحت أكثر حساسية عن ذى قبل ، فقد استطعت أن أميز العلامة التى رسمتها وأشعر بملامحها بوضوح كبير .

حدثت نفسى آنذاك قائلا :

ـ يا لسوء الحظ ، لو أنك تعلمت الرسم فيما مضى لاستطعت على الأقل أن ترسم لها بعض المناظر ..

كنت على حق فيما قلت ، اذ أننى لم أحاول قط فى الماضى أن أرسم منظرا أو ألون رسما .. وفجأة لاح فى مخيلتى منظر كنت قد أعجبت به ذات مرة ، كان يصور حركة المد والجزر .. بحيرة ، تتهادى مياهها الحمرية فى سحر وجمال أخاذ ، وتطل من خلفها غابة شامخة من أشجار الصنوبر .

همست فى خاطرى :

ـ حسن ، لن يضيرنى شىء أن أحاول رسم هذا المنظر الجميل !.

ولما عادت (دوثى) ناولتها الورقة التى كنت أرسم فيها ـ مرت برهة من الصمت العميق سألتنى بعدها :

ـ من رسم هذا المنظر ؟

ولما أخبرتها بما حدث همست قائلة:

ـ اذا شاهد أى شخص هذا الرسم فلن يظن أبدا أنك ضرير .

أمسكت بقلمى وأخذت أرسم منظرا آخر لأريها كيف رسمت المنظر الأول. كنت أقيس المسافات وأدونها بعلامات

أخطها بظفر ابهامى ثم أرسم خطوطا أتحسس بها ملامح المنظر بأطراف أصابعى ، وأوضح الظل والضوء بين أصابعى المنبسطة على صفحة الورقة ·

··· يا له من أمر عجيب حقا ·· شعرت وأنا أرسم أن الظلام الذى كنت سجينه لم يعد فارغا موحشا بعد · فقد كنت أبصر من جديد ـ نعم كنت أرى من خلال ذاكرتى وليس من عينى ··

ومن تلك اللحظة بدأت أعيش مرة ثانية ، أخذت أعمل فى لوحتى بصبر كبير ، كان يشجعنى عليه ايمان عميق بأننى ربما أحاول شيئا فريدا لانظير له· لقد أحدثت أخطاء لا حصر لها ولكن كل خطأ منها كان عبارة عن تحد للتجويد والتحسين · ومن المعروف أن الانسان الذى يشعر بمسئولية التحدى لا شك أنه على قدر كبيرمن الوعى والادراك كان احساسى الفنى يتحرك فى أعماق نفسى بمهل وألم فى نفس الوقت ، فقد كان على بادىء الامر أن أركز فكرى وأحصر خيالى ـ ساعات طويلة ـ فى الموضوع الذى أختار رسمه ، وأحيانا كان يمتد بى الزمن الى أيام عديدة حتى أستوعب الصورة فى ذهنى بوضوح تام وأميز ملامحها وألوانها ، بعد ذلك كنت أبدأ فى رسم الخطوط الاساسية للمنظر مستخدما فىذلك قلما عاديامن الرصاص اللين ليسهل على أن أستشعر خطه العريض، وكنت أفضل دائما رسم الاشياء الجوهرية فى اللوحة أولا ثم أتدرج منها الى المناظر الظاهرية الاخرى ـ فمثلا اذا حاولت رسم باقة من الأزهار الجميلة فانى أرسم الزهرة الاولى المميزة ثم يلى ذلك باقى الازهار أما عند رسم المنظر الطبيعى فكنت أبدأ بالمناظر الظاهرية كالمنزل أو القارب أو الشجرة مثلا أو أى شىء آخر هام ثم أتدرج الى مادون ذلك ـ فاذا ما انتهيت من الرسم بدأت مرحلة التلوين· واشتريت لهذا الغرض أقلاما خاصة لتلوين اللوحات بألوان الزيت ـ وابتكرت مقبضا لها يتكون من خمسة صفوف مميزة ، فى كل صف ستة تجاديف لوضع الالوان المختلفة · وكلفت (دوتى) بوضع اللون الاخضر بجميع مشتقاته فىالصف الاول: الاخضر الداكن فى أقصى اليسار وتتدرج بعد ذلك مشتقاته المختلفة · وهكذا بالنسبة لسائر الالوان كالازرق والبنى والرمادى أما الصف الخامس· فقد خصصته للالوان المختلطة المتنوعة التى تلزم أحيانا فى تلوين بعض المناظر الخاصة · وكنت أتذكر دائما هذه الصفوف على الترتيب السابق وموضع الالوان فيها ـ بالتمرين والممارسة استطعت أن استشعر خطوط رسمى بطرف ريشة الألوان ·· وتعلمت كيف أتجنب اختلاط الالوان على لوحتى، كذلك أمكننى أن أميز بينها ، وأختار منها ما يلائم المنظر الذى أرسمه ، فالالوان يختلف لمسها بالنسبة لما تحويه من مادة ملونة · فمثلا اللون الازرق الداكن تركيب خشن يشبه فى ملمسه ورق الصنفرة بينما اللون الازرق الفاتح يمتاز بملمس ناعم انسيابى · وتدريجيا وبمحاولاتى المتكررة تحسنت قدرتى علىالرسم ولكن واجهتنى فى نفس الوقت بعض الصعاب ، فغالبا عند ما كنت أحاول رسم موضوع ما ، كان يعوزنى استيعاب الحيوية الملازمة للمنظر الذى أتخيله فى ذاكرتى ، وبمعنى آخر كان وضوح المنظر فى مخيلتى ، يبدو ضعيفا غير واضح المعالم ·

وذات يوم وجدتنى أسأل نفسى :

ـ لماذا كنت ضريرا وأنت مبصر !! أى قبل أن يحكم عليك بأن تصبح ضريرا بالفعل ؟!

وأحسست فى تلك اللحظة رغبة ملحة فى أن أصيح فى كل فرد يستطيع أن يرى بعينيه قائلا :

ـ « يا صاح استخدم عينيك ، كن نهما وأنت تشاهد المناظر والأشياء المختلفة ، باحثا وراء كل تجربة جديدة، لاتدع الجمال يمر من حولك دون أن تشبع العين منه وتحتفظ به » .

وبعد فترة استطعت أن أبتكر طريقة فنية بها أستطيع أن أسترجع قوة ذاكرتى فكنت اذا ماستيقظت فى الصباح أستلقى برهة فى هدوء وسكينة أستعيد الماضى وأستعرضه أمامى بوضوح وروية وأبذل جهدى فى تخير بعض المناظر وأتذكرها فى مخيلتى ، وهكذا أمكننى أن أسترجع منظرا كنت قد شاهدته ذات يوم وأنا واقف على قمة جبل «لوك أوت » أشخص بناظرى الى تلك المساحات الشاسعة التى تغطيها بسط زاهية من الخضرة الناضرة فى وديان أنهار أمريكا المترامية ، بدت أمامى بحقولها مختلفة الالوان وأنهارها متباينة التعاريج والانثناءات .

بعد ذلك لاح لمخيلتى منظر لمستنقع تحف به أشجار السرو ، تتلألأ مياهه تحت أشعة القمر الفضية ، ورأيت بعين الخيال البحر الاطلنطى ، الذى يمتد نحو الشمال الشرقى ثائرا يرغى ويزبد بأمواهه المتلاطمة .

وعادة كنت اذا ماتملكنى منظر ما واستحوذ تماما على مشاعرى ، أحاول أولا رسمه فى الحال على الورق ، وقد وجدت من خلال تجاربى العديدة أنه تلزمنى مدة تتراوح بين ثمان الى عشر

ساعات لأرسم منظرا متكاملا تملأه الحياة ، وتمتد هذه المدة الى الضعف تقريبا اذا قمت بتلوينه ـ ولكن مع هذا كانت هناك بعض اللوحات التى استنفدت منى شهورا كاملة من العمل المتواصل . وقد بلغ عدد اللوحات التى قمت برسمها تسعمائة لوحة (٩٠٠) بعت بعضها وأهديت الكثير منها ، كذلك جاءنى الناس من كل فج ليروا انتاجى الفنى وأخص بالذكر منهم الرئيس « ترومان » الذى خرج من عندى ومعه احدى لوحاتى ـ كما عرض على رجل من نيويورك اتفاقا ينص بأن يكون له حق شراء جميع انتاجى .

ومرت السنوات القليلة التالية سراعا ـ رزقنا خلالها ـ أنا ودوتى ـ بمولود بلغ من العمر عامين يملأه المرح والحيوية وحب الاستطلاع البرىء شأنه فى ذلك شأن جميع الاطفال الامر الذى اضطرنى أن أضع أقلام الرسم فوق البيانو لتهرب من عبثه المتواصل ، وتكون فى مأمن من يديه .

والآن وبعد أن لاقيت من النجاح مالاقيت أصرح بأن حياتى لاتزال ضيقة الحدود ، محدودة الجنبات تحوطها بعض الحواجز التى كانت وليدة ظروفى الخاصة ولكن مع ذلك أعترف بأنى مدين لها بالكثير .

وانى لأدرك تماما ـ رغم انى لست من هؤلاء المتضلعين فى الدين ـ أدرك بأن وراء تلك السنوات الست الماضية كان يكمن هدف كبير ، هو الذى ذلل الكثير من الصعاب التى اعترضت سبيلى ، وجعل تلك الحواجز تتضاءل تدريجيا على عكس مابدت عليه أولا . نعم أن مثل تلك الحواجز كفيلة بأن تفقد الشخص قلبه وتوهن عزيمته اذا ما استسلم لها ، ولكنه اذا ماتشبث بهدفه بقوة لا تعرف الخور وأمل لا يتسرب اليه اليأس وثقة بالنفس لايوهنها الضعف فانه لاشك يشعر بشىء يتحرك فى كيانه يجعله يتطلع الى حياة طيبة جديدة ـ وانه لواجدها .